الأسوار ويخذل الجيوش . ولذلك وقف أبو تمام أكثر مديحه على هذه المعانى ، فرأى فى المعتصم مفتاح النصر والظفر ، وسماه المعتصم المنتقم والمرتغب فى الله المرتقب ، وقال إنه لم يغز قوماً إلا تقدم الرعب جيشه ، ولم يرسل جحفلاً إلاّ كتبت له العزة والكرامة ، فأبطل عمود الشرك واستحق شكر الدين :

خَليفَةَ الله جَازى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ جرثومةِ الدّين والإسلام والحَسَبِ
بَصرتَ بالرّاحة الكُبْرى فَلَمْ تَرَها تُنالُ إلا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التّعَبِ

وطبعى أن نرى فى مديح الخلفاء صفاتهم الخاصة من كرم وندى وشجاعة وبأس ، مقرونة بحفاظهم على بيضة الدين وحوزة الإسلام ، وما ينال ذلك إلاّ بالتعب والسعى ، والجهاد والقتال ، فهو مدح يقترن بالحماسة والحث على الحروب ، وقمع الفتن والسير بالناس سيرة الرأفة والسكينة والوقار ؛ وديوان أبى تمام يغص بالمديح فى هذا الباب يشيد بالفتوح والانتصارات وأساليب الحكم العادلة ، قد خصّ بها المعتصم والواثق والمأمون ، فكأنه مدّاح العصور العربية كلها ، وشاعر الخلفاء العباسيين ، فى حسن ديباجة وجمال صيغة وأسلوب ، سالت فى الديوان كل مسيل .

والبحترى سار سيرة أستاذه فانبرى للمعتز بالله ووصفه بالتقوى والورع ونصرة الإسلام ، فهو من عليا قريش تناصرت مآثره فى فخرهم وله فيهم منصب مكين ومكان رصين ، فقد لبس المسلمون فى عهده من نعم المعتز برُداً تزيد على السحائب فى الرياض ، لأنه أخو حزم ساس الأمور ودفع النوائب واعتصم بالعزم والهدى ، فعمت البرية مناقبه ، وسار فى الناس عدله :

نَمَا زِلْتَ حتّى أَذْعَنَ الشّرْقُ عنوةً ودانتْ عَلَى صغر أعالى المَغَاربِ
جُيُوشٌ مَلَأْنَ الأَرْضَ حتى تَرَكْنَهَا وما فى أقاصيها مَفَرٌّ لهاربِ

ولسنا نعجب بهذا المديح ، فالخليفة يبسط ظلال الأمن فى مشارق العالم